سمير تنير

النافذة والجدار

عندما كنت احمل الكتب بيدي ، والبس بنطلونا قصيرا ،عندما كنت في الثامنة ، كنت اعود راسا من المدرسة الى البيت . وفي ذلك اليوم ، عدت الى البيت وكانت الشمس دافئة تفرش الحرارة والخدر في جميع الانحاء . القيت بجسدي على المقعد الطويل ، وتطلعت الى اللوحة المعلقة على الحائط . كانت لوحة غريبة لم أرها من قبل. لا بد ان « رفيق » قد اقتطعها من الكتاب الذي استعاره من مكتبة المدرسة . انها تمثل طفلة صغيرة ، تتطلع الى شمعة وتركع ببراءة حلوة ، ممسكة بيديها كانها تصلي وتنادي وتستغيث . عندما انحدرت ظلال الغرفة الى اللوحة ، شبكت يدي ووضعت رجلي على الطاولة . اتجهت بنظري الى الشمس والى الاشجار ، ثم رحل نظري بعيدا الى البحر الرمادي الذي لاح خطا بعيدا متماسكا . ثم رجعت هيناي الى اللوحة والى الفتاة التي ركعت واخذت تصلي لشمعة بدات تذوب وتذوب .

نهضت من على المقعد . كان في جيوبي اشياء ثقيلة . بعض اكواز من الصنوبر والبلوط ، كنت قد اقتطعتها مع رفاقي ، في فترة الظهر من حديقة مدرستنا التي تتناثر فيها عشرات من اشجار الصنوبر والبلوط . كنت قد غفلت تماما عن اللوحة المعلقة على الحائط . كنت اشعر بحرارة غريبة تدفعني الى الخروج قبل ان يفطرني الظلام الى حجزنفسي في البيت الذي ران سكون عميق عليه . كنت اود الذهاب الى الفناء المجاور ، الذي يفصله حائط كبير عن حديقتنا واللعب هناك وتجربة شيء جديد عثرت عليه صدفة في درج طاولتي في المدرسة .

قمت من على المقعد وخرجت على اطراف اصابعي . تخطيت الدرجات القليلة واخترقت الباب . عندما اصبحت في الحديقة، كان الهواء قد بدا يثير بعضا من برودته على وجهي . اتجهت بخطواتي الى الحائط . عندما وصلت الى الثقب الذي اصل منه كل يوم الى الفناء ، القيته مغلقا باحجار كثيرة . كانت الاحجار مركومة بلا طلاء. كان باستطاعتي رفعها من مكانها بسهولة ، ولكني عندما رفعت يدي لافعل ذلك ، احسست بشيء غامض يمنعني . « ولكن الا تود اللعب ؟ » .. « الن تجرب النقيفة اليوم ؟ » كان الحائط يعلو طويلا في الجانب المقابل ، اما في الجانب المواجه لحديقتنا فلم يكن يعلو كثيرا . وكان باستطاعة اي كان اختراقه بسهولة . القيت بالاحجار المركومة في الثقب بعيدا . رفعت رجلي وتعلقت ثم صعدت وجلست على الحائط ، وهززت رجلي فرحا . هبطت بعد قليل الى الارض ، والقيت بوجهي وبصدري الى الحائط . رحلت عيناي الى البيت الذي اضيئت بعض مصابيحه . كان الحائط يحيط بالفناء من ثلاث جهات. كان ابيض كلسيا ، رصفت بعض القطع الزجاجية على حافته ، محاطا بالسياجات ، لا يرى الا من نوافذ بيتنا العليا ، مملوءا بالنفايات والاوساخ وقطع التنك العتيقة ، وفي زاوية منه قامت شجرة الى جانب الحائط فاحتضنته ولفت حوله اوراقها . كان الهواء يصفع ببرودته وجهي ، والانوار تموت والظلال تنسحب الى الاشجار . وفي الزاوية رقدت كومة كبيرة من النفايات مرسلة رائحتها العفنة .

كنت اتحرك في الهواء الرطب الساكن . اتحرك بخفة . امشي على رؤوس اصابعي . تطلعت الى السماء . كان ثمة سحابة آتية من البحر تقترب منذرة بالمطر . كانت قد وصلت في تقدمها الى وجه الشمس فحجبت كل الظلال ، وخنقت كل الانوار الوردية التي تراجعت وهربت من جوانبها ، فرق غابة الصنوبر الكثيفة التي امتدت على خط الافق . في السكون اصطدمت رجلي بعلبة تنك . سددت ضربة من حذائي الى الحائط . جمعت بيدي قبضة من الاحجار الصغيرة وجلست على حجر كبير قرب الحائط وبدات ارمي بالاحجار على علبة صفيح ثبتها على حافة السطح . تناولت بعد قليل « النقيفة » من جيبي واخذت اضرب الهدف . كان ذلك مسليا للغاية . وجدت فيه لذة رائعة . كانت علب التنك تتساقط من على حافة السطح ، فاضع مكانها فورا واحدة جديدة وفجاة في اللحظة التي وضعت حجرا مروسا في النقيفة عندما رفعت عيني لكي اصوب نحو الهدف رايت قطة سوداء ملطخة ببقع زرقاء تمشي على حافة الحائط . كانت تمشي ببطء . كان سوادها وزرقتها يرتفعان الى السماء التي ماتت كل اضواءها الان ولم تخلف الا الرماد . « ساصوب نحوها » فكرت بهذا . ودون اي وعي مني كان رباط « النقيفة » قد قذف بالحجرة المروسة الصغيرة . لم اسمع صوت علبة الصفيح وهي تنحدر من على حافة السطح . احسست ان القطعة المروسة الصغيرة لم تصب علبة الصفيح بل شيئا ناعما وطريا وحيا . اخذني الرعب فخطوت بسرعة الى الحائط . كانت القطعة قد اصابت القطة التي وقفت بلا حراك بالقرب من كومة القذارات . كانت تتطلع بوجهها نحوي . عندما اقتربت اكثر لاحظت ان عينا واحدة من عيونها الخضراء تومض في الظلمة. اما العين الاخرى فقد انبثق منها دم لطخ الفراء . كانت العين قد بقيت مفتوحة : دائرة من جوهر براق كانت قد تكسرت قطعا صغيرة صغيرة ، وانبثق منها دم قليل .

عندما رايت القطة كنت عاجزا تماما عن الكلام والحركة . لم اخف من العين الخضراء التي تهشمت وغطاها الدم ، بل ان حركة القطة التي تجمدت في السكون قد ارعبتني ، ووجهها الرمادي الكثيف يرنو الي في تلك الوقفة الساكنة ، اطارت السكون من قلبي وذرته مع رذاذ الازهار المحترقة . كنت اخاف ان تنقض القطة علي وتنشب اظفارها في . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . كانت نظرة القطة

الوحيدة وانجاهها نحوي مملوءة بكثير من الدهشة ، لا الحقد . كانت نظرتها تقول « وما الذي فعلت لك ؟ » . كان الهواء قد بدأ يكنس الحديقة والفناء ويذري الاقذار والتراب في عيني . انطلقت اصيح « بست .. بست .. يلا من هون » اخذت افوح بذراعي للقطة « يلا .. يلا » وعندما انحنيت لكي التقط حجرا جديدا ، عندما رفعت راسي كانت علبة الصفيح موضوعة بعناية فوق حافة الحائط . اما القطة فقد اختفت تماما . شعرت بارتجاف عنيف يمتلكني . رميت « النقيفة » وانا اسب واشتم . كان الظلام يزداد حلكة عن ذي قبل . لقد تلألأت بعض المصابيح الكهربائية في نافذة بيتنا العليا. اسرعت اتسلق الحائط . مشيت الى البيت . اخترقت ظلال الاغصان. لقد اختفت الظلال من على اوراقها تماما الان . ولم يبق الا الرذاذ الابيض المتهاطل منها يسقط الى الارض ويغطيها . شممت بعض بقايا نار هامدة عندما وطئت المطبخ . كانت رائحة الطعام لا تزال . ولكن لم يكن ثمة من احد . كان الجميع قد رحلوا في زيارة لامي التي كانت ترقد في احدى المستشفيات البعيدة . كنت وحيدا .

عندما اخترقت الممشى فكرت : ان القطط تجلس في الامسيات في المطبخ امام النار تنتظر ان تلقي يد اليها ببعض بقايا الطعام . بعد ان انتزعت احدى عينيها ؟ هل يجب عليّ ان اقتلها ؟ وحتى لو قتلتها هل سانجو ؟

هل يجب عليّ ان اقتلها ؟ وحتى لو قتلتها هل سانجو ؟

عندما وصلت الى الممشى اخترقت الظلمة الرمادية وقفلت راجعا الى المطبخ . كانت واقفة هناك . شعرت بفراءها يلمس رجلي . صرخت وسط الفراغ الساكن ، وقفزت الى غرفة الجلوس . لم تكن الظلمة هناك اقل ، بل اكثف واشد . جربت ان افتح زر الكهربا ولكن النور الساطع اضاء الغرفة للحظة ثم انطفا فجاة وتركني غارقا في الظلمة الكثيفة . كنت اشهق وانا احاول ان اعيد الكهرباء الى الاضاءة من جديد . لم يكن هناك من اثر للقطة . ولكني لم استطع ان امنع نفسي من الارتجاف ، كان جسدي يحاول ان يهرب مني كجواد يحاول ان يرمي بقائده الى الارض .

وعندما وصلت الى الممشى كان الشيء الاول الذي وقعت عليه عيني هو القطة . كانت مختبئة تحت احد المقاعد ، تنظر الي بعينها الخضراء الوحيدة . لم تعد الدهشة تظهر على وجهها ، بل اختبات مقوسة ظهرها وهي تستعد للانقضاض . اخذ قلبي ينبض . تراجعت الى الخلف وتلمست طريقي الى غرفتي . تذكرت فجاة الصورة والفاة التي تصلي لشمعة اخذت تذوب وتذوب .كنت اود ان احتمي بشيء . المس اي شيء . لم يكن هناك من احد . لم احس بالقطة وهي تتبعني .لم اشعر بها الا وانا اغلق الباب . كانت امامي بوجهها الذي رفعته بضراعة نحوي . حاولت ان اجد شيئا على الطاولة مسطرة او كتابا اهوي به على القطة التي اخذت بمطاردتي . لم اعثر على شيء . احسست بالشيء الثقيل في جيبي . اخذت كوز الصنوبر وقذفته بكل قوتي نحو القطة . لم اسمع الا صوت زجاج النافذة وهو يتكسر ويتهشم ويتناثر الى الارض . لكن القطة لم تختف . عبرت عيناي الى الصورة الباهتة لفتاة تصلي لشمعة لاحت لي كان اشعتها تموت تماما . كنت اود الهرب من القطة التي قوست ظهرها الان . خطوت بسرعة نحو الباب . قبضت على مصراع الباب واخذت اراقب حركات القطة . كانت تدور وتدور وسط هالة حمراء انحدرت اليها من ظلال الغسق ، كانها تحاور وتلعب وتطارد ظلها . فتحت الباب بسرعة . ركضت الى غرفة اخي الخالية . فتحت الباب . اغلقته وادرت المفتاح.

كانت الغرفة دافئة ، والاشياء تتناثر في فوضى على الارض وعلى الطاولة . تطلعت الى مصباح طاولة الدراسة والى مشجب الملابس ، وقد غرقا في نور وردي شاحب . جلست على حافة الكرسي وانا استمع الى الريح وهي تثير عاصفة من الغبار الاصفر ، يحمل الي عبير الازهار المحترقة . وكلما هدات نفسي . مسيت الى «انصوفا» ورميت بنفسي مستعدا لاقتناص راحة قليله وانا افكر واسظر . سمعت اصواتا غريبة تحادثه حاسته تدور في الغرفة المجاورة . ليس هناك من احد . من هو الذي يتحدث ؟ وتجاه ارتفع صوت يعلن عن نفسه . انه يعلن حيوانيته وشهوته . قمت بسرعة . فتحت الباب . رأيت الغرفة تغرق في الرماد الاسود ولا يبين شيء . كان ظل يغادر الغرفة بسرعة . الظل كان لامرأة شقراء . انها احدى جاراتنا . وبعد ان غاب الظل واختفى كل شيء . برز وجه اعرفه . كان وجها مدوراً لرجل يبلغ الخامسة والثلاثين ،وجه اعرفه تماما . اغلقت الباب بهدوء ساحق، دون ان يصدر عنه اي صوت . لم ادر ماذا افعل ؟ ماذا رأيت ؟ كيف سانصرف . وفجاة تتحرك اشياء . وتغيب ظلال وخطوات . حاولت ان افكر . فكرت بالصورة . فكرت برفيق . فكرت باخواتي ، اللواتي ذهبن مع اخي لزيارة امي التي ترقد في مصحة بعيدة . ولكن عبثا. جلست قرب النافذة ارقب الريح وهي تكنس ارض الحديقة حاملة معها الازهار المحترقة . بقيت مدة طويلة اتطلع وارقب وانتظر . امتصني السكون ، واحتضنني والقاني ضحية نوم عميق . عندما افقت فتحت عينيّ وسط الظلمة . وفي الحال امتلأت الدار باصداء اصوات فتية . كان رفيق قد عاد مع نهى وامل ، من زيارة امي . ها هم يثيرون في الدار الحياة من جديد . كنت قابعا وسط السرير متشابك الساقين ، ورأسي ملقى على صدري بين كتفي . كنت اغمض عيني ، وانتظر مندهشا . تعرفت على صوت « امل » الرنان وسط الاصوات لم تاخذني رغبة في القيام . تكومت على نفسي ، وسمعت من جديد صوت امل .

ـ اين انت .. لماذا لم تفتح النور . الم يات ابوك بعد ؟

ـ ما بعرف . الكهرباء مقطوعة .. يا الله ليش طولتوا ؟

ظهر وجه امل وهي تحل شالها وترميه على السرير .

ـ ما في كهربـاء .

احسست انني ارسف في قيود العذاب . اشحت بوجهي .ترى من سيفتح لـي ذراعيه ؟

ـ تعال .. سنصلح « الفيش » .

اسرعت الى « الفيش » المحتـرق انتزعه من الة الكهرباء الاتوماتيكية . وافحصه . ثم احضرت سكينا صغيرة ، انتزعت بعض الاسلاك الرفيعة . وفي لحظات كنت قد اعدت تركيب الفيش بسلك دقيق جديد . عدت الى غرفة الجلوس مع امل كي اعيد تركيبه في الة الكهرباء . عندما اعليت كرسيا لكي أبدء ، رأيت القطة مرة ثانية تتقدم نحوي رافعة احدى رجليها ، مرسلة عينها الوحيدة نظرات مستقيمة اليّ ، فاتحة انيابها . غمرني الرعب مرة ومرة بعنف وحشي . « هالمرة بدي اقتلها » اخذت الفك من على حافة الة الكهرباء، وفي نفس اللحظة مست يدي «الفيش» وبصرخة الم صاعق هزني التيار ، فوقعت على الارض ورشيش دم ينبثق من يدي. لم اشعر الا بيديّ امل تنتشلاني من كتفي ، تصرخ وتصيح وتستغيث . عندما لاحت الاضواء الرمادية الباهتة استولت علي برودة قاسية ، تركتني مغمىيا عليّ . كان اخر ما سمعته آهات ونحيب لا اسم له .

عندما افقت كان شاش ابيض يلف يدي . والوجـه المتالق ذو النظرات الفاضبة الوجه الذي اعرفه جيدا .. ابي يقول :

ـ هكذا .. هكذا تفعل بنفسك . انك حقا لشيطان .

عيناي كانتا تتعلقان بالنافذة ، بالصورة الملونة ، بفتاة تصلي لشمعة كان نورها ينبعث وهاجا اتذكر فجاة المراة الشقراء التي كانت ترفع يدها الفضية الى وجهها . كان وجه علي يملاني مرة ثانية بالارتجاف فاصبح بلا وعي :

ـ اريد امي اريد امي اريد امي .

بيروت